لحظتان مهمتان في القرن العشرين تكشفان عن طبيعة التحوُّل في النموذج الثقافي والاجتماعي المعاصر للهوية والذات، وعلاقته بأزمة المعنى:

اللحظة الأولى: تطوُّر المناهج العلاجية النفسية

في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين حظي العلاج النفسي باهتمام متزايد، فالناس في بحثهم عن معنى حياتهم لم يعودوا يذهبون إلى رجل الدين ولا الفيلسوف، وإنما يستشيرون المحلل النفسي، فقد ارتبط تطور النماذج العلاجية في الحقل النفسي بتقلُّبات الواقع الاجتماعي والثقافي في الغرب الأوروبي والأمريكي.

ومع مطلع الخمسينيات من القرن العشرين ظهرت ألوان مختلفة من الأزمات النفسية، **وتركزت معظم الشكاوى حول فقدان الشعور بالأنا، أو الإحساس بالفراغ، أو الركود، أو انعدام المعنى، أو فقد احترام الذات،** وتضاءلت شكاوى المرضى القديمة من الخوف وأنواع الهوس والهستيريا.

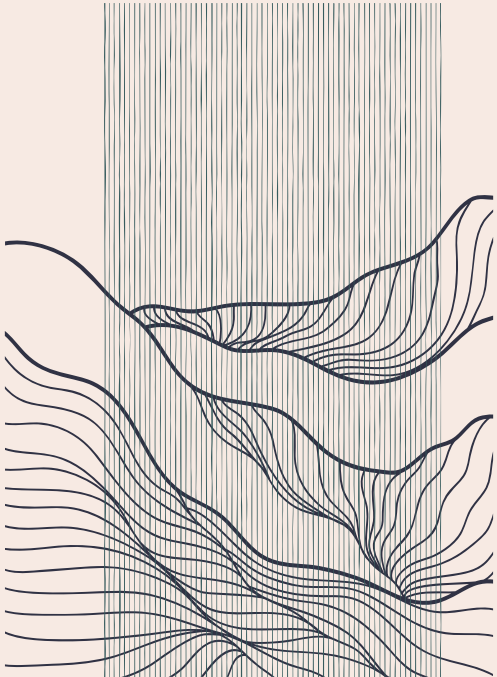

اللحظة الأولى:

فقد أصبحت معظم الآلام النفسية تنبع من «رعب العجز» أو فائض الإمكانات؛ بسبب فقدان الإطار الإدراكي والمعيار الأساسي لتقويم خيارات الحياة واستراتجياتها، بعد أن كانت تصدر عن «رعب الذنب» بسبب كثرة الكوابح، وخشية التهمة بكسر قواعد المجتمع.

وقد اشتهرت بعض المعالجات النفسية التي وُصفت بالاتجاهات الإنسانية في علم النفس الحديث، وأشهرها ما يعرف بالعلاج النفسي الوجودي، وترى هذه الطريقة أن الأزمات النفسية الحالية برزت بسبب تفسُّخ المنظومات والتقاليد التاريخية والثقافية وتخلخلها، في الأسرة، والدين، والحب، والزواج، والعلاقات، والعمل، **وأن الذات المعاصرة لم تعد تحتمل وجودها، لأنها تشعر أن حياتها لا معنى لها.**

فأضحى هـناك اضطراب شـائع في الهوية الذاتية للأفـــراد؛ لأن الفرد لا تستقر نفسه ما لم يعتنق منظومة تأويـــل متسقة ومعقولة، تؤدي إلى جمع عناصر حياته المشتتة بأي طريقة منظمة، **ومن هنا** تأكَّدت الحاجة إلى المعالجات النفسية التي من شأنها مساعدة الفرد على تنظيم الهوية الذاتية وتصحيحها أو إعادة بنائها.

اللحظة الثانية:

بروز أزمة المراهقة

استخدم لفظ المراهقة منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، ثم بدأ بالشيوع على يد عالم النفس الأمريكي جي ستانلي هول، وأصبح علامة على مرحلة من النضج الجنسي غير المشبع أو المؤجَّل، وشاعت صور نمطية إزاء المراهقة كـ«التوتر، والتمرد، والبحث عن الاستقلالية»، وتعود معظم السمات الشائعة إلى **ثلاث سمات رئيسة:** الصراعات مع الوالدين، والتقلبات المزاجية، وسلوكيات المخاطرة والعنف، والأهم هو شيوع الربط بين المراهقة وأزمة الهوية عند الفرد.

ومن أشهر الأطروحات التي حـاولت معالجة هذه الظاهرة أطروحة المحلل النفسي إيريك أريكسون الذي يـرى أن الهوية هـي عملية مستمرة طوال الحياة وتتأسس ذاتيًّا أثناء مراحل النمو، ومعرَّضة لأزمات تستهدف «الأنا»، وحدَّد في أطروحته ثمانية مراحل في تكوين الهوية.

والمرحلة الخامسة هي مرحلة أزمة المراهقة واختلاط الأدوار، ففي هذه المرحلة يجرب المراهق مختلف الأدوار، وتتعقد الأزمة عندما يسعى إلى اكتشاف ذاته، واختيار طموحاته، وعندما يبدأ المجتمع بالسماح له بحرية أكبر في الفعل والعمل مما قد ينتج عن هذه الحالة تشوش في الهوية.

وتُشكِّك العديد من الدراسات الحديثة في دقة هذه التصوُّرات عن المراهقة، وتنفي ارتباط هذه الأعراض بفترة عمريَّة معيَّنة، فتأزيم مرحلة المراهقة يتناغم مع تطوُّرات النموذج الفرداني لتحقيق الذات واستقلاليتها، وهو النموذج الذي يكرِّس أزمة المعنى.

ويشبه الموقف الثقافي من المراهقة ما يسمى بأزمة «منتصف العمر» أو المراهقة الثانية، وهي **تنشأ بسبب مواجهة الحقيقة الحادة المتمثلة في مضي العمر والاقتراب من الموت، وتُشَكِّك كذلك دراسات عديدة في عموميَّة هذه الظاهرة وانتشارها.**

ملامح فردانية تحقيق الذات

نشر الصحفي توم وولف في أواسط السبعينيات مقالًا سماه «عقد الأنا» يرصد فيه الظواهر الجديدة في المجتمع الأمريكي التي تدور حول التمركز حول الذات، والتغني بالحلم بتغيير الحياة والسعي خلف الرغبات التي كانت في الســابق محصورة في الطبقات العليا، وشيوع الجلسات النفسية الجماعية، **التي يتحدث فيها كل فرد بعمق عن ذاته.**

ويشير وولف إلى انعكاسات هذه الفورة «النرجسية» على النزعات الدينية الناشئة التي تتسم بالانغماس في الباطنية والروحانيات العرفانية، كما أثّرت في اندفاعة الموجة النسوية، وتطورات العلاقات العاطفية والجنسية، وتتبُّع لذَّات الحياة، والهروب من المسؤوليات، واضمحلال دوافع التضحية لأجل الآخرين وشعار الفرد المفضل: ليست لدي سوى حياة واحدة.

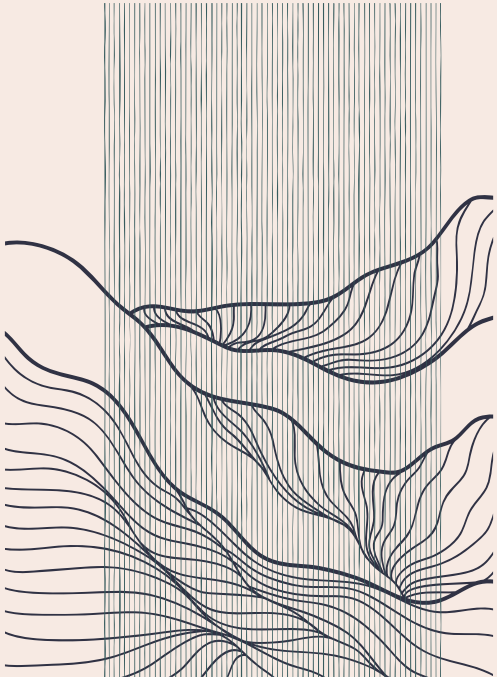

وهذه التحولات ليست منبتة الصلة عن التطورات العامة في البنية الاجتماعية التي شهدتها المجتمعات الغربية في القرن العشرين، فما كان من نتاج الحتمية الاجتماعية أصبح موضوع خيار وتدبير شخصي، وعلى الفرد أن يعتبر نفسه مركزًا مقررًا، ومكتبًا لتنظيم وجوده الخاص، وقدراته الشخصية، وتوجهاته الذاتية، وعلاقاته العاطفية.

والقناعة الأهم للذات المعاصرة تتركز في المفهوم الصارم: «لا تسمح لأحد أن يقول لك من أنت»، وضرورة السعي لتحديد الذات انطلاقًا من الذات وإنتاج الواقع من هذه الذات، ويستخدم لوصف هذه الظاهرة مفهوم «الهويات العائمة» التي لا تكون مرتبطة بأي موضوع خارج الذات، **حيث باتت الأنا هشة، ومتقلبة وخاضعة لكل الإعلانات، وصور الثقافة الجماهيرية.**

وفي الربع الأخير من القرن العشرين شاع نسبيًّا نوعان على الأقل من الاضطرابات الشخصية:

الأول

تكاثر الميول النرجسية، وهي نمط ثابت من الشعور بالعظمة، والحاجة إلى الإعجاب، والافتقار إلى التعاطف، وظهر بسبب الانشغال المفرط بالهوية الشخصية، ومحاولات بنائها ذاتيًّا.

الثاني

اضطراب الشخصية الحديَّة، وهو نمط شامل من عدم الاستقرار في العلاقات مع الآخرين، وفي صورة الذات، والوجدان، والاندفاعية الواضحة.

وهذه **الملامح** تشكِّل النسخة المعاصرة والأحدث من الفردانية الليبرالية والآفات المتصلة بها، والتي يُسمِّيها تشارلز تايلور فردانية تحقيق الذات، ويشير إلى أن كون الناس يضحون بعلاقاتهم، لأجل تحقيق ذواتهم؛ ليس أمرًا غريبًا، ولكن الجديد في العقود الأخيرة هو أن كثيرًا من الناس يفعلون ذلك تحت ضغط الحتّ الفرداني المتزايد لتحقيق الذات، فيشعرون أنه ينبغي عليهم فعلًا تقديم هذه التضحيات مقابل «تحقيق الذات»، وإلا فستضيع حياتهم هدرًا.